مناهج الشرف

تأليف الاستاذ العلامة السيد محمد الخضر بن الحسين
التونسي استاذ آداب اللغة العربية والفلسفة
بالمدرسة السلطانية الجديدة بدمشق

طبعت على نفقة السيد محمد مكي بن الحسين
التونسي

obeikandi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الانسان في احسن تقويم . وعلمه كيف يعرج الى فلك المعالي باسلوب حكيم . والصلاة والسلام على سيدنا محمد اشرف الخليقة . وعلى آله الذين استضاؤا بهديه حتى استقاموا على الطريقة . ثم الرضا عن اصحابه المجاهدين في سبيل اعلاء كلمة الله بالسيف والبرهان . وكل من اقتدى على آثارهم فارتقى في اوج السعادة ارفع مكان (اما بعد) فان معنى الشرف ومناهجه من اجل الوجوه التي ينظر فيها الباحث عن حقائق الاشياء واسرارها . واعز ما يباكر الى اجتناء معرفته قبل ان يدرج في حياته الاجتماعية ويسابق في مضمارها . وليست هذه المعرفة دانية القطوف فيتناولها كل باع . من غير ان يفتقر في رسوخها الى تحرير في العبارة واتساع . فانك ترى كثيراً من الناس لم يستبطنوا المعنى الذي يضمه الشرف

تحت اسمه . ولم يميزوا بينه وبين ما لا يضارعه في وسمه ولا يدخل معه في رسمه . تتشعب مداركهم في ذلك بحسب اختلاف اذواقهم وما يلائم طبائعهم فربما ظنوا الرذيلة فضيلة فأعنقوا اليها او حسبوا الفضيلة في قبيل ما يترفع عنه من الدنايا فاعتزلوا ساحتها وشددوا النكير على من احتفظ بها . ونشأ عن هذا تطرفهم في مقام الحكم بالتفاضل بين الرجلين الى ان يذكر بعضهم في نعوت الشرف ما يعده غيره خسة او لاغية

هذا ما بعثني على ان ابحث في هذا الفرض مستمداً في تحقيقه من دلائل الشريعة المقدسة وسيرة علمائها الراشدين فان الاسلام لم يلق بهذا المعنى في يد العادات والاذواق فتلبس ثوب الشرف من تشاء وتنزعه عمن تشاء بل اقام له قواعد ورسم له معالم من تخطى حدودها وبنى على غير اساسها كان في نظره سافلاً وضيعاً

واذا تفصينا اثر ما يعد من اوضاع الشرف في عادات الامم واعتبرناه بنظر الاسلام وجدناه على اربعة وجوه

احدها ما وافق الشرع على اعتباره شرفاً في نفسه فاثنى

على صاحبه ووعد بالمثوبة عليه كسماحة اليد وصدق اللهجة والصبر للشدائد (ثانيهما) ما منحه التفاتة وربط به بعض احكام ولكنه يصرح بانه غير معتد به لنفسه وانما هو وسيلة الى غاية شرف كسعة المال او امارة تلوح الى ما وراءها من فضل كرفعة النسب (ثالثها) ما تغاضى عنه ولم يزل به الى عدة نقيصة كزيادة علم لا تبنى عليه فائدة عملية

رابعها ما ارشد الى انه يخدش في وجه الشرف ويسقط بمن يرتكبه في جرف من المنكر كبسط يد القوة الى ما ليس بحق ونصرة ذي القربى وان كان مبطلاً قال عمر بن الاهتم الاحنف في مجلس عمر بن الخطاب رضي الله عنه انا كنا نحن وانتم في دار جاهلية وكان الفضل فيها لمن جهل فسفكنا دماءكم وسبينا نساءكم واليوم في دار الاسلام والفضل فيها لمن حلم

واما ما لا يرونه شرفاً ولا يسوقونه في مقام المفاخرة فمثل ضربين احدهما ما كانوا يتخيلونه نقيصة تحط من مكان الرجل فكشف الشارع عن فساد تصورهم وايقظهم الى انه يلتئم بنظام الشرف كالاحتفاظ بالبنات والجلوس مع المساكين

ثانيهما ما حسبوه غير منافٍ للفضيلة وقاسوه بالاعمال التي يسمها ان تقارن كرم الهمة فنادى عليهم بالخطأ في قياسهم واشعرهم بانه مما ينقض بناء الفضل ويبلي اطلاله كتماطي الربا

الشرف والتفاضل فيه

يطلق اسم الشرف ويراد منه معنى الفضل قال في لسان العرب « كل مافضل على شيء فقد شرف » والفضل زيادة الشيء فيما هو كمال فيه والشيء انما يكمل بالوصف الذي يمتاز به ويراد منه، كالصرامة في السيف والعدو في الفرس والاضاءة في الكوكب والحكمة في الانسان واستيفاء مطالب الحياة وشرائط السعادة في الامة واجراء النظامات العادلة في الدولة

يذهب بعضهم الى ان التفاضل انما يجري في افراد النوع الواحد لانها تعمل الى جهة الكمال في قرن . وتتواطأ في سيرها على سنن . ويصرح بان عقد التفاضل بين الاشياء المختلفة في حقائقها المتباينة في غاياتها لا تجتني من ورائه ثمرة ، ويتعسر

وضعه في مكان عادل وتحرير هذا ان التفضيل بين الامور المشتركة في جهة كمالها قريب المأخذ بحيث يقل فيه الاشتباه ولاينتشر فيه اختلاف العقلاء متى دخلوا الى تقريره من باب العدالة فان جهة كمال النوع الواحد اذا تعينت ورسمت حدوها لم يبق لمن انتصب للتفضيل بين فردين منه سوى ان يقيم الموازنة بينهما من تلك الجهة فيتجلى له حالهما من مساواة او رجحان

واما الامور المتمايزة بما هو كمال لها فانها موضع الالتباس فتستدعي اجالة نظر متسع ولا يسهل وضعها في وزن مستقيم ومما يلقي الشبهة في تحقيق التفاضل بينها ان الوصف الواحد قد يعتبر في بعض الموجودات كمالاً ويعد في غيره نقيصة. ومن هنا ترى بعض الحكميين في التفضيل بين امرين يتخذون افتراقهما في النوع عذراً يتخلصون به من القطع في المفاضلة بينهما. حكى ابو عبد الله بن الحباب ان ابا جعفر احمد ابن يوسف الفهري الابلي ساله ما الاحسن كتاب المقرب او شرح الجمل لابن عصفور قال فما تخلصت منه الا اني قلت له ذلك تأليف مستقل وهذا شرح

ويقف بك على دخول التفاضل بين الحقائق المتباينة وصحة التصدي للقضاء فيه قوله تعالى في نسق الامتنان على بني آدم «وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً» واذا اجريت المفاضلة بين المتباينين في الحقيقة ولم يستند فيها الى وحي سماوي فبملاحظة عظم منافعها واهمية ما يقصد منها كما عقدوا التفاضل بين السمع والبصر والقلم والسيف والليل والنهار

يتفاضل البشر بحسب استعداداتهم الفطرية وما يتهيأ لهم من وسائل الارتقاء الى رجل تصمد به محامده حتى يسابق الملائكة في سماواتها العلى . وآخر يهوي الى درك لو زحزح عنه الى ما دونه التحق عند اولي البصيرة بمنازل الانعام وبين هذين المرتبتين مقامات او م من ان يحيط بكثرتها التفصيل

والذي يلقنك الحكمة في هذا التفاضل قوله تعالى «نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحيوة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً» فلو وقف الناس في الفضل صفاً واحداً وتماثلوا في هممهم ومكتسباتهم لفسد نظام الاجتماع واختل امر المعاش والعمران فان فيما تمس اليه حاجتهم

ونستدعيه نشأة حياتهم ما يأبى بعض اولي الهمم ان يباشر عمله بنفسه وان غشية من الاذى ماغشيه · وقد تضعف به الاستطاعة اولا يهتدي السبل الى تحصيله فيفتقر في هـذه الاحوال الى ذي همة نازلة او قدرة اوسع او بصيرة اقوى

وفيما تدعوك اليه الحاجة ما لا يرضى غيرك ان يصرف جهده فيه و يشغل به وقته الا تجاه عوض من المال . متى كان الناس في كفاية وغنى عن العوض لم يتنازلوا الى معونتك فيما تتقاضاه حياتك من المطالب وقصر مجهودك عن ان تقوم به وحدك

واذا كان التفاضل في الخليقة واردا عَلى مقتضى الحكمة فلا يجمل بالرجل يأنس في نفسه المقدرة عَلى ادراك منزلة ولكنها دون الغاية البعيدة ان يحبس عنانه ويبقى عاكفاً في زوايا العجزة بدعوى انه لا يقنع الا بالامد الاسمى من السيادة · ولو اخذ هذا بقبس من مراقبة اسرار الكون لامضى عزمه واندفع في سيره ليبلغ الى الغاية المستطاعة

وما كان ينبغي للرجل حين تقوم له في سبيل مجده عقبات تقطع عنه وجهته ان يركن الى خاطر اليأس فينقض حبل رجائه

obeikandi.com

وينقلب الى طبقات الاسافل . وليس له سوى ان يقف في مصارعتها حتى يكسر كوبها ويفت في جلمدها فان ما يتمخض به المستقبل وتجري به صروف الاقدار اكبر من ان يضبطه قياس او تقضي عليه خواطر الاياس

يتحقق التفضيل بين الشخصين اذا انفرد احدهما باصل فضيلة خلي منها الآخر كالعالم والجاهل والشجاع والجبان او بزيادة قسطه منها كالاعلم او الاشجع يقاس بالعالم او الشجاع وقد يختص كل منهما بجلية فضيلة او فضائل لا يشاركه فيها صاحبه ولا يعول حينئذ في الترجيح على كثرة الفضائل لجواز ان تكون الفضيلة الواحدة ارجح في الموازنة واوفى من فضائل متعددة وانما يصار الى حال كل فضيلة بانفرادها وتوزن بغيرها فيعلم ايها اشرف ثمرة او اجزل فائدة

ولا يلزم في اطلاق التفضيل ان يستوفي الافضل ما عند المفضول من الكمالات فقد يستقل المفضول بمزية ولا يمنع استقلاله بها من اطلاق العبارة في تفضيل غيره عليه . ويصح اذا اختص المفضول بمحمدة او كان نصيبه منها اوفر ان تقرر

له الافضلية من جهتها خاصة كالعالم الكريم لا يتمكن في سجية الاقدام فتفضله على الجاهل البخيل ببذل نفسه في مواقع الاخطار ولكنك لا تستطيع ان تغمض لهذا المفضول عن مزية اقدامه حتى لا تقضي له بالافضلية من جهتها

واذا كنا نعد المزية ينفرد بها المفضول ويسوغ تفضيله من ناحيتها على من ترجح عليه بغيرها من المزايا فلا يليق بخالص اعتقادنا الاعتراف بان بعض افراد الامة قد يختص بحال كاملة يصدق عليها اسم المزية بدون ان يتحلى بها افضل الخليقة صلى الله عليه وسلم . ومن هنا ينكشف لك الستار عما قرره القرافي في قصة فرار الشيطان من عمر بن الخطاب رضي الله عنه ونفقه كيف انتقض جوابه بان اختصاصه بهذه المزية لا تقتضي تفضيله على النبي صلى الله عليه وسلم اعتباراً بقاعدة ان المزية لا تقتضي الافضلية

والحق ما سنح لخاطر ابي اسحق الشاطبي من ان فرار الشيطان من ابن الخطاب انما عد مزية له حيث كان كافلاً بحفظه من اغوائه وصيانته عما ينفثه في الصدور من الوساوس

ولا ريب ان النبي صلى الله عليه وسلم كان معصوماً من نزغاته آمناً من تزييناته وان قرب من ساحته. ويوضح هذا ان المزية غاية تحصل بوسائل تختلف كالعلم مثلا يناله احد بمطالعة كتاب ويتلقاه آخر من تقرير استاذ فلا يقال ان لمكتسب العلم من كتاب مزية عمن تلقفه من فم معلم متى استويا في الغاية التي هي العلم

يقول بعضهم لايعرف مقدار فضل الرجل الا من كان مساوياً له في مرتبته او اعلى. وهذا مثل ما قال تقي الدين السبكي حسبما نقله التاج في طبقاته «لايعرف قدر الشخص في العلم الا من ساواه في رتبته وخالطه» ومقتضاه ان لا ينتصب للتفضيل بين العالمين الا من كان في منزلتهما او ارقى درجة

وانت اذا علمت ان من الناس من لا يصل الى ان يستظهر الحقائق من مخبآتها ولكنها اذا استخرجت ووضعت امامه في اخلاط من الباطل عرفها بصفاء فطرته وميزها من غير ان تلابسه ريبة، تحققت ان الرجل قد بلغ به الذوق الخالص الى ان يعرف من كان ينطق بالقضايا التي تنحو نحو المقاصد البعيدة

ويفرق بينه وبين من لم ترتفع بهم مداركهم عن الخوض في المسائل القريبة وان لم يبلغ في نفسه ان ينسج على منواله ويرمي في تحقيق المباحث الى غايته . ويعجبني قول بعض تلامذة الغزالي لايعرف فضل الغزالي الا من بلغ او كاد يبلغ الكمال في عقله . وهي مقالة امكن في الصواب من قول تاج الدين السبكي لايعرف احد ممن جاء بعد الغزالي قدر الغزالي ولا مقدار علمه اذ لم يجيء بعده مثله

شرف الانسان

من ضرب بنظره في سيرة رجل ممن شهدت لهم العقول الراجحة ورفعتهم في رتب السيادة الى السنام واخذ يتبصر في الاحوال التي امتازبها عن سائر الحيوان فاول مايطالعه في صحيفة اثاره عمل منتظم وسير لاعوج فيه ، يتحرك فتتناثر الصالحات من خلال حركاته ويسكن فتبتهج العيون بسكينته . وليست هذه الشئون الظاهرة مما يعرض لاعضائه بغتة مثل مايعرض الاختلاج للعين والارتعاش لليد بل هي ناشئة عن قلب حاضر ومنسوجة بارادة ثابتة . ونفقه ان هذه الارادة

لاتخطر عَلَى قلبه كما يريد الرضيع ليقبض عَلَى ذبالة السراج فيمد يده اليها وانما هي اثر علم يتقدمها وشعور بما يترتب عَلَى صنع كذا او الامساك عنه من جلب محمدة او التخلص من معتبة . ولا يستقل العلم وحده بانشاء هذه الارادة على وجه منسجم فانك ترى المسلم يعترف بفريضة الزكاة ويشعر بما يترتب عَلَى منعها من العقوبة في الدار الآخرة ثم يمسك عن اعطائها مطاوعة لطبيعة الشح بمكتسب المال او حرصا عَلَى اتلافه في تحصيل لذة عاجلة . فيوخذ لصدور الارادات الحسنة عَلَى منهج لاينخرم شرط تنقيح النفس من الطبائع السيئة وترشيحها بالاداب الراقية

ثم ان العلوم صور ترتسم في النفس بواسطة قوة نسميها بالعقل وقد يتفق لبعض من تخلصت له مزية العقل والعلم والادب وحسن الارادة ان لايصدر عنه من العمل الصالح مايصدر عن ذلك الرجل الذي ضربناه مثلاً . وهذا يستلفتنا التعرف وصف آخر له مدخل في ابراز المساعي الحميدة الى طرف الوجود ، وهو الاستطاعة

فتحرر بهذا الاستقراء ان مدار كمال الانسان على عقل وعلم وادب وارادة واستطاعة وعمل

القوة العاقلة

هي استطاعة النفس الانتفاع بالمعلومات عند الحاجة اليها. وما لا يحتمل الشبهة ان حصص النفوس من هذه القوة متفاوتة فمن الناس ذكي يقرأ من صفحات الوجوه ولحظات العيون ما يكنه الرجل في خبايا سريرته . ومنهم غبي لا يصل الى المعاني القريبة الا بالعبارة الواضحة واعادتها عليه مرة بعد اخرى

لماذا ترى الرجلين استويا في مقدار ما احتسياه من لبان المعارف ، واحدهما يتناول قلمه فيملي عليه فكره من الافهام ما لم يروه عن معلمه ، ويمسك الآخر القلم فلا يرشح له بكلمة زائدة عما تلقاه من فم استاذه

ذلك لان في مدرك الرجل الاول فضل قوة يحسن بها التصرف في معلوماته و ينتزع بها المعاني الغامضة من منازع بعيدة ثم يؤلفها في صور قضايا مبتكرة ، بخلاف عقل الثاني

فانه لضعف شعوره بالمناسبات بين المعاني المتفرقة وقصوره عن تصور ما ينتج عنها اذا ركبت في نظام واحد لم يزد على الاحتفاظ بما اقتنصه سمعه من افهام معلمه

تتفاوت العقول بحسب فطرتها ، وقد تتقارب باعتبار الفطرة و يدركها التفاضل بما يتقدم الى بعضها من التعاليم الراقية بحسن اساليبها وصدق قضاياها فان مباكرة الفطرة بالمطالب الصحيحة الواردة في الاساليب الحسنة يربيها من مبدأ نشأتها على معرفة الطيبات من العلم و يشب بها على طريقة الافهام القيمة ، واذا انطبعت الفطرة بالتعاليم الثابتة وانست بها منذ اخذت في طور التعلم كانت اقدر على تمييز درر المباحث من حصبائها وادرى بالصواب والخطا ممن ترشحت فطرته بالقضايا المنحرفة والقصص الواهية فان الفطرة اذا تزيت بزي التلقينات الزائفة وتلطخت بحمأتها الخبيثة صارت مستعدة لقبول الاقوال الساقطة وادراجها في زمرة معلوماتها . وعلى فرض ان تمد تلك القوة عنقها لاستنتاج مالم تتعلم فلا تتحاشى ان تستجلب القضايا المستضعفة التي هي من نوع ماسبق لها في التلقين

قد يتسع عقل الانسان لادراك مطالب يضيق عنها نظر آخر هو اقدر منه على تصور مطالب اخرى · وربما كان هذا التفاضل الذي تقاسماه بينهما ناشئاً بحسب ما يتسابق الى كل منهما ويتجمع عنده من العلم بالمقدمات والقضايا القريبة من المطالب التي فاق قرينه في تحصيلها · ومما يضع امامك ان الفكر قد يبلغ اشده في بعض المباحث ويدركه الفشل في بعضها ان قدماء الفلاسفة اقبلوا على بعض علوم كالحساب والهندسة والمنطق واعملوا فيها الروية فاصابوا مفاصلها بصوارم الادلة واستولوا عَلَى خبرة بها لا تنازعهم فيها ريبة · وهذه الانظار التي عهدت لهم هنالك بجودة التصرف واصابة الغرض هي التي اداروا عنانها نحو الالاهيات فطرحتهم في فضيحة والقت عَلَى افواههم كلمات يعدها المؤيد بجمع الشرائع من قبيل ما يهذي به المبرسمون · وفد العلا الحضرمي عَلَى منذر بن ساوي فقال له يا منذر انك عظيم العقل في الدنيا فلا تصغرن عن الآخرة

فطن بكل رزية في ماله ... واذا يصاب بدينه لم يشعر

نوه الاسلام بشأن العقل وشمله بعناية كبرى. ونكتفي في تقرير هذه العناية بثلاثة شواهد

احدها انه منع من تناول ما يؤثر فيه خللاً كالمسكرات واغلظ القول في تحريمه

ثانيها ما وضعه على من ضرب شخصاً فازال عقله من دية مبلغها الف دينار

ثالثها توسيع طرق النظر امامه واستدعاؤه الى التدبر في اسرار الموجودات

رفع الاسلام مكان العقل واثبته في سجل الشرف على شرط ان يوجهه صاحبه في البحث عن مكان الحقيقة وينافس به لاحراز العلوم النافعة

ومما ينبهك على هذا الشرط الوثيق قوله تعالى في ذم قوم حبسوا عقولهم في ظلمة الباطل ولم يطلقوها من اسر المتابعة والجمود « اولئك كالانعام بل هم اضل سبيلاً » فتمثيل حالهم بالانعام انما ساقه اليهم اغفال عقولهم وبقاؤها تائهة في اودية الجهالة الى ان حرموها حلاوة اليقين وراحة الاعتقادات

الراسية . وقد مثل تعالى حال من نفروا عن العظة ونأوا بجانبهم عن الاصاخة اليها بحال الحمر المتوحشة اذا عاينت اسداً امتلأت منه فزعاً وطاشت عن ساحته فالتة فقال « كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة » وفي الحاقهم بالحمر ووضعهم منها في قران التشبيه ايذان بان منزلتهم في الحطة ما برحت بازاء منازلها وان قوى مداركهم لم تصعد بهم الى مطالع الشرف قيد انملة حيث اصبحت عارية عن ادراك ما فيه سعادة دائمة وقال تعالى في جملة ما قصه علينا من اقوال الضالين عن سنة هدايته « وقالوا لو كنا نسمع او نعقل » الآية فهؤلاء لم يريدوا سلب حقيقة العقل من انفسهم بحسب الواقع وانما اعتبروه بمثابة المعدوم واطلقوا في نفيه حيث لم يجتنوا به ثمرة الايمان الواجب ولم يستضيئوا به في البحث عن التعاليم المفيدة

ولا تلابسك الحيرة في قضية ان العقل مطلع كل شرف اذا بلغت الى قول الفقهاء ان شدة الذكاء تفوت بصاحبها عن اهلية الولاية للقضاء . فاشترطوا للحاكم ان لا يكون زائداً في الدهاء فان المراد من الذكاء سرعة انقداح النتائج وسهولته على النفس،

وهذه هي الفضيلة . ويعني بالافراط فيها اختطاف صورة الامر او القضية من غير احكام فهم ولا تثبت في المأخذ . ووجه العيب في هذا ما قد يعرض له من الاختلال في التصور حيث لم يضع فكره على غضون الصورة او القضية ولم يحط بها من سائر اطرافها . قال ابن خلدون ان فرط الذكاء والكيس عيب في صاحب السياسة لانه افراط في الفكر كما ان البلادة افراط في الجمود والطرفان مذمومان من كل صفة انسانية والمحمود هو التوسط . وساق على هذا ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما عزل زياد بن ابي سفيان عن العراق قال لم عزلتني يا امير المؤمنين العجز ام لخيانة فقال لم اعزلك لواحدة منهما ولكنني كرهت ان احمل فضل عقلك على الناس

ويلوح في الفقه من هذه القصة ان فضل عقل زياد لم يكن من قبيل اختطاف الصورة من غير احكام فهم حتى يكون خدشة في نفس تصوره بل كان زياد بصفة من يحيط بالقضايا وما ينشر لديه من النوازل ويوفيها حقها من النظر وتطبيق الدليل وانما يدركه الذهول عن سبر عقول الجمهور وتحرير قدر

ما نحتمله من الاوامر في السياسة فقد يقتضي الحال تأخير ما لا تصل اليه افهامهم ولو كانت المصلحة المرتبطة به اعظم ليلاً يعتقدوا به العنت والاعتساف ويهوشوا عليه بالنكير فيفضي الامر الى نزاع وسخط لا تحمله عاقبته . ففضل عقل زياد بمعنى اتساع انظاره والرمي بها الى غايات من المصالح التي تكل دونها ابصار الجمهور لا يسحب اليه خللاً في نفس ذكائه ضرورة ان الجمهور لو اقتربوا من انظاره وتلقوها على كاهل القبول لما وجه اليه عمر بالمؤاخذة ، ولو كان فضل عقله من قبيل الوجه الاول وهو الاستعجال في فهم الامر من غير تروٍ منه لم يعبر عنه عمر بفضل العقل ولحق عليه الانفصال عن الولاية ولو رضيه الناس

ويزيدك خبرة بان ما توفر لزياد وامثاله من فضل العقل ليس من العيب الذي تلمز به قوتهم الناطقة انهم لو اضافوا الى حدة بصائرهم ممارسة طبائع الرعية وتحري ما يلائي مداركهم ولا يضطرب له نظام راحتهم كانوا على شرط الكفاءة لاي ولاية تلقى الى عهدتهم . وبهذا التحرير يظهر ان فرط الذكاء

حيث يراد منه الرمي بالفهم الى اغراض في السياسة غامضة لا يكون مانعاً من ولاية الاحكام بذاته او على اطلاقه

يذكر بعض الناس ان واسع العقل يكون انكد عيشاً في هذه الحياة ممن قصرت انظارهم وجمدت مداركهم . ومنهم من يقول انما الراحة فيها على مقدار اتساع العقل و بعد مراميه . وقد فك ابن حزم التعارض بين المقالين بان استراحة العقلاء من جهة تلقي المكاره بعزيمة ثابتة وعدم التاثر لصدمات المصائب ، بخلاف صاحب النظر الفاتر فان خاطره ينزعج لاقل بلاء ينزل بساحته ، واما نكد عيش العاقل فمن اجل ما يشاهده من اطفاء نور الحق والنفخ في مزمار الباطل او الاستماع الى الحسانه بطرب وارتياح وهذا بخلاف من انطفت بصيرته فانه لا يهمه بعد انتظام شئون بيته ان تنهض الحقوق قائمة او تحز اعناقها على نصب الشهوات

فضيلة العلم

اذ كانت العقول في مثال السيوف تقطع الباطل أن يتشبث باطراف الحقائق فان العلم ثقافها الذي يقوم اودها ومصقلتها التي

تجلو اصداءها. اترون السيف الذي احدودب متنه اوتكاثف الخبث علَى غراره كيف يقبح منظره وينبو عند الضراب به ؟

كذلك العقل اذا غشيته الشبه وانحدرت به في نواحي الضلالة حتى التوى غصنه بالتواء شعبها او بقي في مستنقع من الجهالة حتى التف عليه من سوادها حجاب كثيف فانه يدنو من ذوي البصائر فتشمئز فطرهم السليمة نفوراً منه و يذهب الى البحث عن الحقيقة فلا يقع علَى مكامنها

وما اللسان الا مرآة تمثل خواطر العقول وتنقل مداركها من شعور الى شعور . والمرآة اذا تكدر سطحها او تجسم وجه زجاجها بغبش اخذت الصور على غير نظامها وعرضتها في اشكال غير مطابقة .

كذلك اللسان اذا القت عليه الفهاهة اثقالها وشدت عليه الالكنة عقدتها فانه لا يحتفظ بما يمليه عليه الفكر من المعاني فيضبطها من سائر حواشيها، بل يؤديها في مثال شخص حذفت بعض اعضائه او تخاذلت هيأته فتصوب رأسه الى اسفل وتصعدت قدماه الى اعلَى

فمن العلوم ما يرجع الى اصلاح النفوس او تكميل العقول كعلوم الشريعة وصناعة المنطق والتاريخ

ومنها ما يرجع الى تقويم اللسان وتهذيب صناعة الكلام كعلوم اللغات وآدابها

ومنها ما يتخذ في وسائل الحياة والتفنن في اساليب العمران كالهندسة والطب والطبيعيات

اصبحت مزية العلم في جلائها رشهرتها مثل فلق الصبح لا يسع حداً جهالتها فيكاد بسط العبارة في هذا الصدد يلحق باسهاب لمقال في المعاني المطروحة على البداهة عند العامة والاطفال ، لكننا نسترق النظر برهة في تفاضل العلوم في انفسها ونعرج على الوجه الذي كان به العلم ركناً من اركان السيادة

تتفاضل العلوم بحسب اهمية ثمرتها او عموم نفعها او قوة براهينها وشرف موضوعها كاللغة تفضل على المنطق بعلو ثمرتها التي في فهم دلائل القرآن والحديث، وكالفلاحة تفضل على معرفة الصياغة بعموم نفعها والهندسة تفضل على علم الهيأة بقوة براهينها ، ومثل التوحيد يفضل على الفقه بموضوعه وثمرته وبراهينه .

قد تقوى عناية قوم ببعض العلوم فيجعلونها الغاية في الشرف ويفضلون العارف بها على من قام بغيرها من العلوم وان كان اعلى حكمة واقرب وسيلة الى السعادة فيرفعون في بعض العصور او البلاد مقام حافظ اللغة على مقام حافظ الحديث ويؤثرون العارف بالمنطق على القائم بعلم الفرائض ويفضلون صاحب البلاغة على العالم بالفقه

وكان للفقه عند اهل الاندلس المقام الاعلى حتى اذا ارادوا تعظيم الملك او الوزير اثبتوه بالفقيه وربما دعوا به النحوي او الاثري حيث قصدوا اجلاله لانه اشرف الالقاب في ندائهم

وقد يأخذ العلم اعتباراً لدى الشعب ورواجاً اذا كان له مساس بتصرفات الدولة كعلم العربية في قوم يكون لسان دولتهم عربياً ولرجال الدولة اهتمام بفصاحة الرسائل ورفعة اسلوبها قال ابن السبكي في طبقاته كان محمد بن بري المولود عام ٤٩٩ متولياً امر التصفح في ديوان الانشاء وذكر ان الكتب لا تصدر عن الدول الى ملوك النواحي الابعد ان يتصفحها امام من ائمة اللسان وان القاضي الفاضل كان يتصفح الكتب التي يكتبها العماد ومن كان دونه فمثل هذه العناية يكون له مدخل قوي في الاقبال على

علوم

يثبت الشرف للعلم في اعتبار الاسلام من جهة انه يثمر عملا نافعاً فاذا لم يكن له اثر في عمل يشكر فاما ان يعد ضرباً من المباح كمسائل الخلاف التي لا تترتب عليها فائدة واما ان يحسب فيما يصف صاحبه بوصف الحطة كالسحر والطلاسم.

مما يحقق ان الشرف لا يثبت للعلم الا من حيث انه يثبت العامل ويطالب السعادة قوله تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها) الآية : فانظروا كيف ذم الذين درسوا التوراة واتوا عليها تلاوة ثم احجموا عن العمل بموجبها في اسلوب بليغ فضرب في وصفهم مثل الحمار يحمل اسفاراً من حيث خلوهم عن المزية وعدم استحقاقهم للحاق بزمرة العلماء اذ لا ميز بين من يحمل كتب الحكمة على ظهره وبين من يضمها داخل صدره او دماغه اذا صد وجهه عن العمل بها، وتنسحب هذه المذمة على كل من حفظ علماً طاشت به اهواؤه عن اقتفائه بصورة من العمل تطابقه

ومن الناس من يندفع في سبيل التعليم فيتلقف المسائل على غير بينة من امرها ويضمها في حفظه جيدها على رديها بدون ان

يتفقه في ثمرة وضعها وتدوينها ولا يتدبر كيف انصرفت الافكار
الى استنباطها وما الصنع الذي اقتحمته حتى تمكنت من اقتناصها
فامثال هذا هم الذين اذا سمعوا مناديا ينادي باسم العلماء جاءوا
اليه يهرعون واذا وقف العاملون على ساق الاجتهاد وشدوا
حيازيمهم للسعي رأيتهم اضطجعوا على صماخ اذانهم يتاوتون

ومنهم من يأخذ القضايا العلمية فيدير فيها نظره يمينا وشمالا
ويجمع بين طرفي مبدئها وغايتها فاذا نزلت في اعماق صدره واختلطت
بسلك روحه اشتد حرصه على الاحتفاظ بها واصبح يغار لعدم
اجراء العمل بموجبها غيرة من جرد قريحته في البحث عنها وافرغ
وسعه في انتزاعها وترتيب نظامها . وامثال هذا هم الذين لا ينفضون
ايديهم من صلة العلم وان كسدت بضاعته ولم يتقدم صاحبه
عن موقف الجاهلين خطوة فانهم احسوا في الحكمة بلذة لا يشوبها
كدر ودخلوا في مطالع اينانس لا تمر بها سحائب الوحشة

ومما لا يرضى التحرير لنفسه وان لم يصر اهلا لبدء القواعد
والاحكام ان يكون راويا لاقوال العلماء من غير ان يتصرف
فيها بمقتضى صناعة التحقيق كان يكشف عن الزائف ويرجح

جانب

جانب المصيب او يفرق بين ما يظهر في صورة التعارض و يضع كل مقالة في موضعها او يستنبط الجواب عما يتوجه على القواعد المسلمة من البحث والاستشكال وهذا احد الوجوه التي يتفاضل بها العلماء وترفع بعضهم فوق بعض درجات . قال الشيخ ابن عرفة في حديث (او علم ينتفع به) تدخل التآليف في ذلك اذا اشتملت على فوائد زائدة والا فذلك خسار للكاغد قال الابي « يعني بالفائدة الزائدة على ما في الكتب السابقة عليها واما اذا لم يشتمل التأليف الا على نقل ما في الكتب المتقدمة فهو الذي قال فيه خسار للكاغد وهكذا كان يقول في مجالس التدريس « اذا لم يكن في مجالس الدرس التقاط زيادة من الشيخ فلا فائدة في حضور مجالسه بل الاولى ممن حصلت له معرفة الاصطلاح والقدرة على فهم ما في الكتب ان ينقطع لنفسه و يلازم النظر » وضمن ذلك في ابيات نظمها وهي :

اذا لم يكن في مجلس الدرس نكتة   وتقرير ايضاح لمشكل صورة
وعزو غريب النقل اوحل مقفل   او اشكال ابدته نتيجة فكرة
فدع سعيه وانظر لنفسك واجتهد   ولا تتركن فالترك اقبح خلة

واذا كان ظل العز والشرف يمتد حول العالم بمقدار سعة معارفه فيجدر بالرجل ان يلمع بفكره في كل علم امكنته مزاولته ويأخذ من كل فن بطرف ولو التقى رحله في بعض علوم وجد من نفسه استعداداً وانبساطاً زائداً نحوها .

عكف ابو صالح ايوب بن سليمان مرة على كتاب العروض حتى حفظه فسأله بعضهم من وجه اقبباله على هذا العلم بعد الكبر فقال حضرت قوماً يتكلمون فيه فاخذني ذل في نفسي ان يكون باب من العلم لا اتكلم فيه

جرت سنة الله ان علم الشريعة انما ينال بالاخذ عن علمائها وينحرف بعض العامة عن هذه الجادة فيشهدون رجلاً كيف نشأ بينهم ولم يدخل مجالس تعليم ولم يصاحب استاذاً يتلقى عنه ما تجب معرفته من احكام الدين فيغترون بمزاعمه ويعتقدون له مقاماً سامياً في الصلاح ثم يقتدون بسيرته ويؤثرون اقواله عما يرويه العلماء من بينات الكتاب والسنة قال العلامة ابن حجر الهيتمي في فتاويه : ان الجاهل بمبادي العلوم الظاهرة مما يجب عليه تعلمه لا يكون ولياً ، وان علم الشرائع لا يدرك الا

بالتعليم

بالتعليم الحسي . قال ويؤيد هذا ان المحقق ابن عرفة المالكي حكى الاجماع على ان علم الشرائع لايكون الا بقصد التعليم . وهذا واضح فان القرب من رب العالمين يكون على قدر سلامة الطوية وصحة العبادة ومن لم يتعلم شروط العبادات وواجباتها ومبطلاتها اختلت اعماله وكانت عارية عن الصحة واذا كان يخرج عن رسم الشرع ويأتي بعمله على غير وضع فكيف يصدق ان ادعى المرتبة القريبة من رضاه ونزل الشرائع ويتخذ قدوة يعمل على آثاره قولاً وعملاً

ادب النفس

يظهر جلياً ان توجه الانسان لعمل يحمد هو اثر اعتقاده بكماله والفوز بغايته ولكن العمل لايسهل مأخذه وتنشط له الجوارح بدون تردد الا اذا صاحب ذلك الاعتقاد خلقاً ثابتاً

فالخلق حال راسخ في النفس تصدر عنه الافعال بسهولة

واعتبر في هذا بموسرين يبصر احدهما المسكين في حال احتياج الى نائل فتهتز عواطفه رغباً في امداده ويحس بالارتياح لمواساته كيف يسري في عروق فؤاده كما يسري الشفاء في

مواضع الالم . ويقف في جنب الآخر سائل تحف به شواهد الفاقة والعجز عن الاكتساب فيشمئز خاطره لاستعطائه ويحيد عنه بنظره ولكنه يتذكر ما قرر في فضيلة البر وما يجازى به المنفق في سبيل الله فيدفعه ذلك الى ان يقطع فلذة من فاضل ما عنده ويضعها في يد السائل ونفسه تابية لها

فالاول لم يزد على الثاني في صنعه الظاهر والقيام بمؤونة الفقير سوى انه بذل ماله عن كرم سجية ورقة عاطفة ، والثاني انما فارق ما بيده بعد منازعة طبيعته ومحاورتها بان العوض عن ذلك اوسع ثواباً وانقى . وهذا قد ينسج على قلبه الذهول وتعزب عنه فضيلة البذل فيصرف السائل خائباً

هذا الحال الذي نسميه خلقاً وتأهب به نفس المتأدب للعمل قد تنشأ عليه النفس من اول فطرتها كاخلاق الانبياء عليهم السلام وقد يرتسم بواسطة اعتقاد يحضر في النفس ويتكرر وارده عليها كاخلاق الشجاعة ينتقش في الطبيعة بتتابع ادراك ان عاقبة الاقدام شرف دائم او راحة خالصة وان

الحياة

الحياة عَلَى هوان اشد مضاضة وامر غصة من الموت في حال عز . فاذا القيت بتعليم هذا الى شخص وبقي بعده مغرماً بحياته حريصاً عَلَى استيفاء ملاذها ، فاما ان يكون مع ذلك مستصوبا لاراء الجبناء فنستيقن ان تلقينك له لم يصل به الى اعتقاد جازم بقبح الجبن ومعرة الفزع ، واما ان يعشق حياته ويرضى برفقة القواعد وهو يحترم المقدام ويزدري بمن يماثله في الاندهاش والتسلل من مواقع الخطوب فنتحقق ان تعليمك انما افاده اعتقاداً بفضيلة الشجاعة ولم يبلغ به الى ان صيره خلقاً مكيناً . واذا كان الخلق نتيجة اعتقاد فخلق الجبن مثلا حاصل عن اعتقاد ان الاقدام ملق الى التهلكة وان للموت مرارة لاتحتمل فكيف يجتمع مع اعتقاد فضيلة الشجاعة وعلو شأن البسلاء ؟

ان الخلق وان كان نتيجة اعتقاد فقد يزول ذلك الاعتقاد ويخلفه اعتقاد آخر وتبقى النفس لابسة للخلق الذي اوقعه الاعتقاد الاول فالقابض يده عن الزكاة مثلا ان تصرف في ارادته اعتقاد يناقض الاعتقاد بفريضتها كاعتقاد خلوها عن المصلحة وانها نقص في الاموال ومجلبة للفاقة فقد خرج بذمته

عن طوق الاسلام . ومن امارة هذا الاعتقاد الزائغ انك تسمعه يستخف براي من يمد يده بها عن سماحة خاطر وينسبه الى البله وقلة الكياسة في حفظ المال، اما اذا وثق في اعتقاد وجوبها ولكنه انكمش عن ايتائها ايثاراً للمنفعة العاجلة وذهولا عن هول العاقبة فهذا هو الذي نثبت له اصل الايمان مع استحقاق ذلك الوعيد

ويؤكد لك ان الاعتقاد بكمال الشيء قد يتفق مع نزوع الطبيعة ومغالبتها في العمل بخلافه انك تجد المتهاون ببعض الواجبات الدينية يرى القائم بحقها على هداية وحكمة فيعظم في عينه ويذكره بلسان التمجيد ، كما يشهد للفاسق بسفالة الهمة وسخافة الراي

وابغض من بضاعته المعاصي وان كنا سواء في البضاعه

يذكر فلاسفة الاخلاق قضية اختلافهم في حال النفس عند ابتداء نشأتها . وليس من الغرض بسط المقال في هذه القضية بسرد المذاهب وتقرير الدلائل بل الذي يتشبث بمنهج هذه الورقات ان نمر على صفوتها ونأخذ بطرف المحرر منها وهو

ان النفس في مبدأ فطرتها عارية عن سائر الاخلاق خيرها وشرها ولكنها فطرت عَلَى استعداد وقبول لما يؤثره فيها التعليم والاقتداء من الاخلاق الفاضلة، وهذا الاستعداد هو الذي جعلها متوجهة بفطرتها نحو السبيل الملاقي للحكمة فاذا القصت ثدي التربية كانت سرعة انطباع الخلق و بطؤه عَلَى قدر ما يبلغه ذلك الاستعداد الفطري من القوة والضعف

وقد يعرض لهذا الاستعداد انحراف يزين للنفس بعض تعليمات خاسرة ويريها وجه الادب سمجاً فلا تلتفت اليه باعجاب ، مثلما تبتلى حاسة الذوق بسقم تعاف به الماء القراح وتستلذ به ما لا طعم له او ما له طعم خبيث

ولا تمتر فيما او مانا اليه من ان هذا انحراف تصاب به الفطرة عَلَى قلة وغرابة اذا كنت تشاهد من المتهافتين في مستنقع الاخلاق الدنيئة اكثر من القائمين عَلَى الاخلاق المهذبة فان اصحاب الرذائل قد تكون استعداداتهم الفطرية مستقيمة والبلية انما وقعت عليهم من جهة تركهم في مضيعة وعدم مراقبتهم بالتربية الى ان اجتذبتهم الاخلاق السافلة . وليس في استطاعتك

ان تدرك بيقين ان النفس قد بليت بانحراف في ذات استعدادها الا اذا وجهت همتك الى احد الاطفال واخذت تلقي اليه من الآداب العالية وترشحه بها يوماً فيوماً الى ان قضيت في ادبه امداً بعيداً وعند ما نصبت له وزن الاختبار وجدته فرغاً من كل ادب رفيع ورأيت همته منحطة الى درك الرذالة

ومما يرشد الى ان النفوس متهيئة بطبيعتها الى الاحوال الشريفة قوله صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة) فقد ذكروا في تفسير الفطرة انها الجبلة السليمة والطبع المتهيء الى قبول الدين. ويلوح الى ذلك فيما نبه عليه بعض المفسرين قوله تعالي (والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكدا) فان الآية ضربت مثلاً للنفوس الخيرة والنفوس المطوية عَلَى شر وقوله (والبلد الطيب) عائد الى الاولى وقوله (والذي خبث) ايماء الى الثانية ووجه الدلالة ان النفس لما كانت مستعدة بفطرتها لان تكون طيبة كان الطيب بمنزلة المغروز في فطرتها فعبر عنه بالاسم الدال عند اهل البلاغة عَلَى مجرد الثبوت ، ولما كان الخبث يعرض لها لعلة انحراف

او تتقين عبر عنه بالفعل المشعر عندهم بالحدوث

ولا يتدافع مـا تحقق لديك من استعداد طبيعة النفس للفضائل مع ما غرز فيها من قوة الشهوة ، فان هذه القوة لا تعد سيئة الا اذا تطوحت عن رسم الاعتدال وهي انما تتعاظم بتكرر ادراك المحسوسات اللذيذة وترددها عَلَى مذاقتها طعماً بعد آخر . ومع هذا التعاظم فقد تبقى النفس عَلَى فطارتها من التوجه الى الخير والتعلق باطرافه فلا تدخل في امر الشهوات وان بلغت غايتها وربما كان فوز النفس عليها وهي متعاظمة ادل عَلَى المزية من قهرها لها وهي متفانية كما لاحظوه في مسـاق التفضيل بين البشر والملائكة

يتعرض الكاتبون في الاخلاق الى رسومها الفارقة بينها بحيث تتمايز حقائقها ولا تختلط حدودها . والذي يعسر احياناً انما هو تطبيق تلك الرسوم عَلَى الاحوال الخاصة ومعرفة ان هذا موقع الاقدام مثلاً فنسمي الاحجام عنه جبناً او هو موقع الاحجام فنسمي الاقدام عليه جرأة وقد تلتبس بعض المواطن فلا يدري الناظر هل يحسن فيها الترفع فيكون التنازل ذلة

او يليق بها التنازل فيكون الترفع كبراً فلا بد حينئذ من جودة الرأي وامعان النظر في تعرف المواضع التي يصلح فيها مثل الاقدام او الصفح او البذل او الترفع التي هي آثار الشجاعة والحلم والكرم وعزة النفس . وفي هذا المقام تظهر مزية التربية الخاصة فانها تعطي للانسان ملكة التفرقة بين مواقع الاخلاق الفاضلة والاخلاق السافلة فالاب والمؤدب يكرران على الصبي تمجيد الحلم وعزة النفس مثلاً ويزيدان على ذلك تنبيهه على مواقعها حين يغضب بغير حق او يتنازل الى غير اهل

قد يمر بك في اقوال الشعراء ما يحث او يثني على بعض الاخلاق المعروفة بالمذمة فلا يغرنك بما يمسح عليه من زخرف الفصاحة كقول بعضهم يأمر بالحمق

وكن اكيس الكيسى اذا كنت فيهم
وان كنت في الحمقى فكن احمق الحمق

فعجز هذا البيت لا يتعلق باذيال الادب الا اذا قصد به ناظمه معنى مقاومة الاحمق ومقابلته بشدة تدفع في اذيته اذا لم يكف في مدافعتها اللين والمجاملة . ويماثل هذا قول ابن

الرومي يمدح طبيعة الحقد

وما الحقد الا توأم الشكر في الفتى
وبعض السجايا ينتسبن الى بعض
فحيث ترى حقداً على ذي اساءة
فثم ترى شكراً على حسن القرض

فالحقد مما اتفق العقلاء على انه خلق ذميم لانه طبيعة احتفاظ الانسان على الجريمة وامساكها على ظهر القلب ليجازي بها حيث تسنح الفرصة وان اصلحها المجرم ببسط المعذرة او رجاء المغفرة . فاذا عني ابن الرومي من الحقد الذي عقد النسب بينه وبين الشكر عدم نسيان الاساءة لمن لا يفني فيرد شكيته الاناة وسماحة الضمير كان شعره بمقربة من الحكمة السائرة

فضيلة الارادة

يخطر على قلب الرجل صورة عمل فيحس بنفسه كيف تنزوي هربا منه او تهتز رغبة في ايقاعه حتى تثبت وتستقر على احدى الحالين . فصفة استقرار النفس على ترك الامر او عمله هو الذي نعنيه بالارادة

وقد اشتدت عناية الشريعة بالارادة فبعد ان اخذتها شرطاً في صحة الفعل او كماله نظرت اليها بانفرادها ووضعتها بقربة منه فقدرت للنوايا الفاضلة نصيباً من المثوبة اذا لم يتمكن صاحبها من انجاز ماعزم عليه قال صلى الله عليه وسلم فيما روى البخاري « من هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة » كما فرضت للارادات السيئة كفلا من العقوبة وان لم يعقبها اثر في الظاهر على ماذهب اليه عامة السلف واستشهدوا في هذا بقوله تعلى « ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة » الاية فقد بني استحقاقهم للعذاب الاليم على عمل قلبي وهو محبة شيوع الفاحشة واستدلوا بحديث اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار فقيل يارسول هذا القاتل وما بال المقتول قال لانه اراد قتل صاحبه وفي رواية اما انه كان حريصاً على قتل اخيه . فانه اعتبر في علة العقوبة نفس الارادة

وفسر هؤلاء الهم الذي ورد الحديث بعدم المواخذة فيه على معنى حديث النفس بالفعل من غير قرار عليه وتصميم

وكذلك جاءت الشريعة بتزكية الارواح واعلاء مقامها عن الاوصاف التي شأنها تثبت الاثار السيئة على الجوارح كالحب والبغض والحقد والحسد وفوضت لها نصيباً من الجزاء اذا استرسل معها صاحبها ولم يقوم عوجها بسيف الحكمة والمجاهدة وانما حجز بينهما وبين مباشرة العمل مانع في الخارج

تتفاضل الارادات بالشدة والضعف فقد يربط كل من الرجلين على قلبه القصد الى مساع دونها سبل شاسعة واخطار ويشرعان في العمل فيذهب احدهما وهو يقاطع المثبطات ويدافع ما يقف عرضة في سبيله الى ان يضع يده على الغاية . ويتدرج ثانيهما زمناً حتى اذا ما احست قدمه بعثرات تترامى امامه قطع سيره وصرف وجهه شطر همة اخرى . فمنشأ تمادي ذلك وانقطاع هذا انما هو شدة العزيمة وضعفها

يمثل لك شدة العزيمة ان عبدالملك بن مروان قصد الخروج الى بعض الحروب فلما استعد للرحيل وقفت له عاتكة بنت يزيد بن معاوية تستعطفه الى التخلف وترك

الخروج لموقع الحرب بنفسه ، ظناً منها ان سلطان الهوى اشد اثراً على قلب الرجل من عزيمته فقال لها هيهات اما سمعت بقول الاول

قوم اذا حاربوا شدوا مآزرهم
دون النساء ولو باتت باطهار

ومما يكشف عن ضعف عزيمة الرجل وتداعيها الى البلى ان يعقد ارادته على القيام بعمل يصدق بحكمة وضعه ثم يتركه وينصرف عنه حيث يكون برأى ممن يخالفه في الاعتقاد بشرفه ويرى بناءه على غير نتيجة ، ونضرب المثل لهذا رجلاً يدركه وقت العبادة بمشهد من لا يرقبون بفريضتها اولا يلتئم وضعها باذواقهم فيقعد عن الاحرام بها مجاراة لاصحاب هذه الاذواق ومخافة ان يسقط احترامه من اعينهم ، كأنه لم يدر ان اقرب الناس منزلة من بهيمة الانعام من يخرج اعماله عن سلطان ارادته ويأخذ فيها بارادة قوم لا يملكون من اسباب سعادته فتيلاً

وتتفاضل الارادات بحسب ما تتوجه اليه من العمل او

باعتبار ما ترمي اليه من الاغراض فمن حدثت له ارادة السعي في الاصلاح بين طائفتين يكون اشرف قصداً ممن هم بجهاد الباغية منهما ، ومن قصد الى طلب علم ليستكمل به في نفسه او يصلح به قومه كان ارفع همة ممن يقبل على التعليم لاغتنام معيشة او الفوز برئاسة ، فملاحظة الباعث مما يجر الى الارادة كمالا زائدا عن الحسن العائد اليها من نفس العمل

والبواعث تختلف الى مراتب ، اعلاها التقرب من رضا منشيء الكائنات والتحلي بحسن طاعته ، وادناها اقتناص المال او ادراك الوجاهة في اعين الخليقة ، وبينهما غايات بحث فيها علماء الشريعة من جهة ملاءمة الارادة الخاصة او تكدير صفوها وممن حرر المقال في تفاصيلها وبسط ادلتها ابو اسحاق الشاطبي في موافقاته

ينبهك على التفاضل في الارادات الحسنة ان الرجلين قد يتماثلان في درجة الفضل وتتحد آثارهما لكنك تجد احدهما قد تمكن من الاخذ بالمكارم وتجمعت حوله وسائل الارتقاء حينما احتاج الآخر الى مصارعة الموانع وصرف الوسع

في تحضير الوسائل فانا نقطع لعزيمة الثاني بفضل قوة هي مجهولة في همة الاول اذ من الجائز ان همة الاول لا تثبت لتسوية العقبات ولا تشد حزامها لتحصيل ما يعوزها من الوسائل المتعاصية . قال ابو الوليد الباجي يوماً مفاخراً لابن حزم انا اعظم منك همة في طلب العلم لانك طلبته وانت تمان عليه تسهر بشكاة الذهب (يشير الى ثروة ابن حزم وآبائه) وطلبته وانا اسهر بقنديل بائن السوق (جمع ساق) فقال ابن حزم هذا الكلام عليك لا لك لانك انما طلبت العلم وانت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي وانا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته فلم ارج به الا علو القدر العالي في الدنيا والآخرة . ويؤيد ابن حزم في جوابه هذا ان من تربى في مهد الترف واحاطت به زخارف الدنيا من كل ناحية يسكن في قلبه الحرص على اللذائذ ويصعب عليه التخلص من شواغلها فمن خلع صدره من الشغف بمناظر النعيم والميل الى مضاجع الراحة وهي طوع يمينه ثم استبدلها بالتوجه في سبيل المجد الذي لا يخلص سالكه من متاعب واقتحام اخطار فلا بد ان

يكون قد ضم بين جنبيه همة سامية وارادة لنفس الفضيلة خالصة

مزية الاستطاعة

سبق لنا في التمهيد ان الاعمال لا تصدر للخارج الا مع استطاعة . ووسائل الاستطاعة تختلف باختلاف الاعمال فمن الاعمال ما يتوقف على صحة الجسم ومنها ما يتوسل اليه بالمال وبعضها ينال بفصاحة المنطق وآخر يفتقر الى نفوذ الكلمة بوجاهة او رئاسة او حمية قوم وقد جاء في مساقات الشريعة ضم هذه الامور الى اطراف الكمال باعتبار التوسل بها الى مقاصده

اما قوة الجسم فاعتبارها من جهة انها مكملة للشجاعة وعدة لارهاب المبطلين ودفاع اذيتهم قال تعالى (وزاده بسطة في العلم والجسم) فلو كان الجسم الطويل العريض محشواً بالجبن وخور العقل او وقع التعرض به لمقاومة الحق ونصرة الباطل لسقط عن ساحة الفضيلة وكان صاحبه طفلاً ولكنه في جسم كبير قال تعالى «واذا رأيتهم تعجبك اجسامهم وان

يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة » ومثلهم بالخشب المسندة لانها غير مرجوة النماء او المنفعة كما يرجى من الخشب القائمة في مغارسها . وقال حسان رضي الله عنه في فئة تستبشر بملتقى الفلال

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ
جسم البغال واحلام العصافير

واما المال فيعز شأنه في نفوس كثير من البشر ويتغالون في اجلال صاحبه من غير نظر الى حال تصرفه فيه . وفيما روى البخاري ان رجلاً مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لرجل عنده جالس ما رأيك في هذا ؟ فقال رجل من اشراف الناس هذا والله حري ان خطب ان ينكح وان شفع ان يشفع . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مرّ رجل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأيك في هذا؟ فقال يارسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حري ان خطب ان لا ينكح وان شفع ان لا يشفع وان قال ان لا يسمع لقوله . فقوله في وصف الرجل الثاني (من فقراء المسلمين) يدل على

انه قصد بقوله في نعت الرجل الاول (من اشراف الناس) انه غني فارشده عليه الصلاة والسلام ونبهه على عدم تحقيقه في معنى الشرف بقوله هذا اي الفقير خير من ملء الارض من مثل هذا اي الغني

وقد يتعاظم في الطبيعة تفخيم قدر المال حتى يرسل على الفكر ستار الوهم ويخيل له ان صفة الغنى رأس كل فضيلة وملاك كل شرط لاهلية التصدر بالمجالس والمناصب قال تعالى في قصة «طالوت قالوا انى يكون له الملك علينا ونحن احق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال » فانظر كيف ذهبوا الى ان واسع الثروة هو الجدير بان يستخلص لرئاسة الملك الى ان ايقظهم نبيئهم من سكرة الجاهلين وهداهم الى ان الوصف الذي يعتمد عليه في كفاءة الرئاسة انما هو العلم وصحة الجسم بقوله « ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم » ففضيلة العلم مطلع الآراء النيرة والتدابير الماسكة بمحكم السياسة، وصحة الجسم مظهر الشجاعة او الاقدام على تنفيذها قال المتنبي :

الراي قبل شجاعة الشجعان هو اول وهي المحل الثاني
واذا هما اجتمعا لنفس مرة حازت من العلياء كل مكان

والاسلام يثبت الفضل في المال من جهة انه معونة على المشروعات العظيمة ومطية الى كثير من المقامات العالية فلو اوتي رجل سعة من الثروة فركض بها ركض الوحوش في الفلات ولم ينفقها الا في ملبس فاخر ومطعم لذيذ، او مطية سابقة وقصر مشيد، كان احط رتبة من المسكين الذي يزيد عليه بمثقال ذرة من الخير قال صلى الله عليه وسلم (ان المكثرين هم المقلون يوم القيامة الا من اعطاه الله خيراً فنفح به يمينه وشماله وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيراً) ومما يرجع الى التكاثر بالمال وسعة الحال التباهي باللباس والتفنن فيه اصنافاً والواناً ومثل هذا مطروح من آيات الشرف في نظر الشريعة وعادة العقلاء ولعلك تذكر ما جاء في الموطا عن جابر رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً وعليه بردان قد خلقا (بليا) فقال الما له ثوبان غير هذين؟ فقلت بلى يا رسول الله له ثوبان في العيبة كسوته اياهما قال فادعه فمره فليلبسهما ثم ولى يذهب

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم البس هذا خيراً له . فهذا الحديث يصرح بفضل الملابس الحسنة وان حال الزينة اكمل من التقشف . فنقول ان الشارع فوض في امر اللباس الى حكم العادة وما يليق بحال الانسان فاذا جرت العادة بلبس نوع من الثياب وكان مستطيعاً له فعدل عنه الى صنف اسفل منه او ابى قبح به هذا الحال وكره له لان بنادة اللباس ورثته مما تقذفها العيون وتنشز عنها الطباع فتلقى بصاحبها الى الهوان والالتفات اليه بالحاظ الازدراء وهذا هو الوجه في انكاره صلى الله عليه وسلم جَلَّ الرجل في الحديث السالف واما الخروج عن المعتاد والتسلق الى ما هو انفس واغلى فهو الذي رفضناه من حواشي الفضل ونفينا ان يقفز بصاحبه درجة قال المعري

اذا كان في لبس الفتى شرف له فما السيف الا غمده والحمائل

بل تجد اكثر الناس يستخفون بمن يتعدى طور امثاله في ملبسه و يعدونه سفهاً في العقل وطيشاً مع الهوى ، وكذلك الاسلام يستحب للانسان ان يقتصد فيما تستدعيه حياته من المطالب ، ولا يوجبه الاستكثار منها والسرف في الانفاق عليها حتى

يتخذ منها ما يزيد على الحاجة . ولا يستحق ان يذكر بازاء الحكمة فيما نرى قول الشاعر

هم الملوك اذا ارادوا ذكرها من بعدهم فبالسن البنيان

الا اذا كان الشاعر قد عبر بالسن البنيان عن بناء المدارس والمساجد والمستشفيات والطرق العامة وبيوت يأوي اليها الفقراء والمستضعفون

واما فصاحة المنطق ففضيلتها من جهة الكشف عما يتجلى في مطالع الافكار من المعاني ويخطر على القلوب من المطالب . ولا خفاء ان العبارات والاساليب تتفاوت في ايضاح المراد وتشخيصه لذهن المخاطب كما تتفاضل بدونق الفصاحة وعذوبة المذاق . وهذا ايضاً له مدخل في تلقي المطالب او القضايا العلمية بقبول ووثاقة فهم . ومن هنا رفع الاسلام ذكرها في سياق الخصال العالية

قال تعلى « الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان » فايراد « علمه البيان » مجرداً عن حرف العطف لكمال اتصال معناه بما قبله وهو قوله (خلق الانسان) ووقوعه منه موقع

التفسير لشيء من مفهومه . فيشعر بان الانسان انما يتم خلقه وتقوم حقيقته بتعليمه المنطق الفصيح

ونريد بالفصاحة ملكة التعبير عما في الضمير باي لسان حضر ، فللمتضلع من لغة الفرس مثلا مزية على قصير الباع فيها متى استعان بها في تقرير الحقائق وابتغي بها الوسيلة الى التعريف بمقاصده الحسنة

وتوهم كثير من الادباء ان الفصاحة وصف كمال في نفسه فاذا اتفق لهم ان يبرزوا معنى في اسلوب فصيح قذفوه بافواههم ولم يبالوا ان يكون ذلك المعنى عبثاً او خاذلا لحق . ونرفع مقالنا هذا ان نسوق فيه امثلة من منظوماتهم السخيفة ولاسيما اشعارهم التي قلبوا فيها بعض آداب شرعية ومدائحهم التي وقعوا بها حول الشرك بواجب الوجود

وفي الناس من لم يتفقهوا في فضيلة الفصاحة فاذا سمعوا ناطقاً يجهر بالعبارة ويطلقها من لسانه بدون حبسة ادخلوه باعتقادهم في زمرة الفصحاء دون ان ينظروا في تحقيق المطابقة بينها وبين المعاني التي قصد افهامها . والدراكة قد يرجح ذا

المعقدة في نطقه حين يفرغ العبارة في عين الغرض ويفضله عمن يرمي بكلامه التتابع وهو لا يصيب المفصل من المراد

ولمن احكم لسانين مزية ظاهرة على من عرف لسانا واحداً حيث كان يستعمل اللسان الذي انفرد به في مقاصد لا تدرك باللسان الذي شاركه فيه صاحبه

واذا اقمت الوزن بينهما فقد يساوي ذو اللسانين صاحبه في قدر معرفته باللسان المشترك فتكون فضيلته اظهر . وتارة ينقص عنه فلا بد لك حينئذ من النظر الى الزيادة التي حازها ذو اللسان الواحد وتقيس اثرها باثر اللسان الذي استقل به صاحبه فان استويا فان ذا اللسان الواحد وذا اللسانين في منزلة واحدة من الشرف ، وان كان اثر الزيادة في اللسان المشترك اعظم من اثر اللسان المختص به فذو اللسان الواحد يكون اعرق في المزية وارقى ، وان كان اثر اللسان الثاني اقوى من اثر الزيادة فهنا يكون ذو اللسانين ارجح وزنا وارفع درجة

واما الوجاهة وهي ان يحصل للرجل شأن يستهوي اليه نفوس قوم بمودة او رهبة او رجاء فتارة تكتسب باستقامة

السيرة وخلوص الطوية فقد جرت سنة الله ان من صفت سريرته وعزرت صالحاته احدقت اليه الضمائر الحرة واولته وداً وانعطافاً وهو ما وصف الله به عيسى عليه السلام في قوله «وجيهاً في الدنيا والآخرة» وهذا الضرب من الوجاهة وصف شرف في نفسه واذا توسل به الوجيه الى قضاء ما يهم الناس من المآرب كان سيادة فوق سيادة . وتارة تدرك بحال تربي رهبة كالقرب من ذي سلطة ، او تحث رغبة كثروة يطمع الطامعون ان يبلوا صدى حاجاتهم من قطراتها . وهذا الضرب انما يحتمله العد في مساق الفخر اذا خدم صاحبه المصلحة وتناهى به الى صنيع يشكر عليه

واذا اطلعت على اثر يقتضي البعد عن الوجاهة فانه مصروف الى الحرص في طلبها والتصنع لاحراز سمعة في المجامع الحافلة والبلاد القاصية واما اذا اندفعت همة الرجل الى المكارم بجاذب ابتغاء الفضيلة وطفق ذكره يتسع على حسب مساعيه المفيدة فذلك خير من العزلة والاختباء في زوايا الخمول قال تعالى فيما قصه من قول ابراهيم عليه السلام «واجعل لي لسان صدق في

الآخرين » وقال في سياق اقوال لقوم صالحين « واجعلنا للمتقين اماماً » قال الرازي الاقرب انهم سألوا ان يبلغهم في الطاعة المبلغ الذي يشار اليهم ويقتدى بهم . واستحب الفقهاء للصالح ان يسعى في ولاية القضاء ليدرك الناس امده في العلم وبراعته في الفهم فيهرعوا الى الاستنارة بافهامه والاستقاء من ورد علومه

واما الرئاسة وهي ان يملك الشخص النظر في شئون قوم بانفراده او بمشاركة غيره فانما دخل صاحبها في ذوي الشرف من حيث تطوقت ذمته بقلادة فصل الحقوق او تمكينها من ايدي اربابها ، ولهذا شرع الاسلام ممن علم من نفسه الكفاءة والاستقامة ان يسعى لاصابتها ولو برغبة صريحة قال تعالى فيما قصه من قول يوسف عليه السلام «اجعلني عَلَى خزائن الارض اني حفيظ عليم » وقال المازري قد يستحب طلب القضاء لمن يرى انه انهض به وانفع للمسلمين من آخر تولاه باستحقاق . واما الآثار الموذنة بالنهي او الوعيد عَلَى ولاية خطة القضاء والامارة كقوله صلى الله عليه وسلم «انكم تحرصون عَلَى الامارة

وستكون ندامة يوم القيامة » فخطابها متوجه لمن لم يستوف شرائطها من معرفة وعدالة وشدة عزيمة في التنفيذ

يقولون ان الولاية معيار همم الرجال وعدالتهم فانهم بعدها ثلاثة اصناف فمنهم من يتمادى على سيرته الاولى ولا ينتقل الى حال تبعد عما عهده في الاساءة والاحسان، وبعضهم ينطوي على نفس عاطفة الى الخير فاذا جلس في منصب استعظم مكان الحقوق واخذ يفحص بخاطره عما يلزم اتخاذه من النظامات الكاملة بحفظها ، ومتى اهتزت هذه النفس العاطفة انبتت من التدابير المثمرة ما يبعثها مقاماً محموداً . ومنهم من يحمل في مخبآت صدره خبائث وقد طبع على صناعة المخاتلة والاحتيال فيحتفظ في سيرته جهده ويتحاشى بظاهر عرضه ان يلوث بفضيحة فاذا قبض يده على سلطة خلع ثوب عفته المستعار وغشى من المخازي ما يجعله هدفاً لسهام الطاعنين . لا يفوت الرئيس الذي يحمل النية السوداء ويركب في المظالم متن عمياء ان ينساق الى ذوي نفوس حرة ينقرون له على وجه نقيصته ويصبون في اذنه اقوالا تفيقه من نشوة السلطة وتكدر

عليه حلاوتها الى مرارة وان ملك قوة ورجالاً واتخذ سلاسلا واغلالا . قتل الحجاج عبد الله ابن الزبير رضي الله عنه ثم ارسل الى امه اسماء بنت ابي بكر الصديق فأبت ان تأتيه فانطلق يتبختر حتى دخل عليها وقال لها كيف رأيتني صنعت بعدو الله يعني ولدها عبد الله قالت رأيتك افسدت عليه دنياه وافسد عليك آخرتك اما ان رسول الله حدثنا ان في ثقيف كذاباً ومبيراً (مهلكا) فاما الكذاب فرأيناه واما المبير فلا اخالك الا اياه . فنفذ سهم هذه المقالة في فؤاده فاخمه وقام عنها

واما الاعتصاب بعشيرة اولي قوة على امضاء عزيمتهم وحماية ذمارهم فيحسب في دعائم الشرف اذا استنجد به اخو العشيرة في اقتضاء الحقوق او مكافحة الايدي المتطاولة اليها وفي الصحيح « مابعث الله نبياً الا في منعة من قومه » وقال هرقل في مسألته لابي سفيان عن حال النبي صلى الله عليه وسلم كيف هو فيكم فقال ابو سفيان هو فينا ذو حسب فقال هرقل والرسل تبعث في احساب قومها قال ابن خلدون

ومعناه ان تكون له عصابة وشوكة تمنعه عن اذى الكفار حتى يبلغ رسالة ربه . وقد يأخذ العرب قلة النفر في موضع الهجاء ويدرجونها في مساق التعيير كما قال شاعرهم

تعيرنا انا قليل عديدنا فقلت لها ان الكرام قليل

ثم ان الفائدة في كثرة عدد القبيلة عائدة الى اتساع سطوتهم وبسط رواق العز على من تشبث بجوارهم واذا استتب هذا الغرض لنفر قليل فلا يلحقهم غضاضة من قلة عددهم لاسيما اذا قيسوا بقوم غمروا بسوادهم البلاد وامتدت عروقهم في كل واد ولكن خمدت غيرتهم ولم تهب الانفة على مهاطسهم فيداس عنق المستغيث بخرمهم وابصارهم شاخصة والى هذا او مابقوله

وما ضرنا انا قليل وجارنا عزيز وجار الاكثرين ذليل

فضيلة العمل

العمل الفاضل ما دعا اليه منزل الشرائع كل واحد بعينه كالعبادات او خاطب عليه الامة لتقوم به طائفة منها كالتعليم وحماية الحقوق . ولا يعد في محاسن الاعمال مالا يطلع له في دلائل الاسلام على ما يشهد باستحسانه، وهذا القسم منه ماصد

عن سبيله فيدخل الآخذ به في حزب الاراذل كأكل اموال الناس بنحو الارتشاء ومنه ماخلى بينه وبين مايختاره العبد لنفسه كترويح الخاطر باجتلاء الازهار الرائقة والانهار الدافقة فانه لايخطو به الى محمدة كما انه لايجر عليه ملامة

ومن الاعمال مايقع على اوضاع متعددة فيطلق الشارع الاذن في اتيانه بدون ان يحده برسم خاص ولكن تجري عادة قوم بملابسته على حالة مخصوصة ويهجرون سائر احواله فيتجدد بهذه العادة تخصيص لذلك الاذن العام فتفضل هذه الحالة المألوفة ويلحق غير المألوف بما يكره التلبس به فان من يرفض الطور المعروف ويستبدل به طوراً مهجوراً على سبيل الهزل او التقليد او الاغراب استحمقه الناس ورتعوا في عرضه بالوقيعة والاستهزاء وهذا مايورده الفقهاء في باب الشهادة ويسمون الاحتفاظ به مروءة فلو نبذ الرجل عادة قومه لوجه ظاهر في المصلحة لم يكن انصرافه هذا خارقاً لثوب مروءته

يتسابق الناس في الاعمال الطيبة بحسب تفاضلها في نفسها . وافضلية العمل تعرف بنص الشارع او بعظم ثوابه

كفضل صلاة الجماعة على صلاة الفذ او بمصاحبته لفضيلة اخرى كفضل صلاة النبي على صلاة غيره لمقارنتها للنبوة او بشدة المشقة كفضل الدعوة الى الخير حال الغربة والانفراد على الدعوة اليه في الوطن او مع كثرة الاعوان ، او بعموم المنفعة كفضل المنتصب للتعليم على المنقطع للعبادة . ويرتفع بعضها فوق بعض منزلة بقدر الاخلاص فيها وما يقصده العامل عند مباشرتها

قد يكون العمل في نفسه شريفاً فتخالطه بحسب مجرى العادة احوال سافلة فيسري في الطباع انتقاصه تبعاً لما حف به من المكاره كما عد طائفة قرض الشعر نقيصة حيث وضعه كثير من الشعراء في قلب الحقائق ولم يتحاشوا ان يلمزوا به فاضلاً او يداهنوا به ظالماً حتى قال بعضهم

ولولا الشعر بالعلماء يزري ... لكنت اليوم اشعر من لبيد

وسلوك كثير من الشعراء ذلك المسلك الخاسر لا يجر المهانة الى اصل الصناعة فلو اخذ احد على عهدته ان لا ينتحله الا في الحكمة او الانتصار على ظالم كان من احسن المذاهب

في الخير واحمدها غاية ولقد اذن النبيّ صلى الله عليه وسلم لعبدالله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير في هجاء قريش وقال لحسان بن ثابت قل وروح القدس معك

وحط ابن خلدون من شأن التجارة قال لاستلزامها المكايسة في البيع والشراء وخلق المكايسة بعيد عن المروءة التي تتخلق بها الملوك والاشراف . ثم ذكر ما يعرض لها من الغش والخلابة وتعاهد الايمان الفاجرة . وانت اذا امعنت في كلامه واعتبرت المكايسة ضرورية للتجارة اخذت منه للتجارة حالين احدهما ان يرتكب صاحبها الغش والخلابة وتعاهد الايمان الكاذبة وهي بالنظر الى هذه الحالة نقيصة تنزع عنه ثوب المروءة وتنزل به عن مرتبة الملوك والاشراف ولكن هذه الحالة غير داخلة في حقيقة التجارة ولا هي من مقتضياتها فكيف يسري نقصها الى اصل هذه الحرفة ويجعل سبباً لاخلالها بالمروءة اللائقة بالاشراف ثانيهما ان يترفع التاجر عن هذه الحالة المزرية ولا يبقى معه سوى خلق المكايسة فان

عني ابن خلدون انه يخل بالمروءة التي يحسن التحفظ عليها في نظر الشارع فغير صحيح بل هي ممدودة من فروض الكفايات كسائر الصنائع التي يتوقف عليها حياة الامة وقد كان اكابر الصحابة يتجرون وان اراد مروءة الاشراف بحسب بعض العوائد فمحتمل ولكنا لا نتد من حكم العادة بالشرف او ما ينافيه الا بما قامت شواهد الشرع على صحة اعتباره

واذا وثقنا بان الاعمال الشريفة ما حسنت في نظر الاسلام انفتح لنا في طريق العلم بمعنى الشرف سبيلان احدهما ان العمل الفاضل ما ثبت حسنه بالدلائل المبثوثة في الكتاب والسنة المأخوذة بافهام المجتهدين على مقتضى وضع اللغة العربية واساليب بلاغتها فينهدم فيما بناه الزنادقة تعليم انطالى تمويهه على اعين بعض العامة فاستزلم في غواية وهو ان هناك احكاماً يتلقاها بعض الاخيار من تعليم باطني ليعمل بها في نفسه او يتعلمها ان شاء على اتباعه، فيبصرون رجلاً يقلب رسوم الشريعة ويحيد عن منهجها الصريح ويستمرون على اعتقاد كماله بزعم ان ما انتحله من الاوضاع المخالفة قد بلغ اليه

بطاريق غيب

وترى كثيراً منهم يحمل في اعتقاده ان الرجل اذا ارتقى الذورة التاسية في الصلاح سقطت عنه تكاليف الشريعة كأنهم لم يتعلموا ان رسوم الشرع من عبادات وغيرها هي المحافظة لاركان الشرف فمن نبذها فقد نزع عن نفسه ثوب الكمال الانساني واصبح عارياً من كل كرامة

ثانيهما ان العمل الذي يأمر به الاسلام لا يحق لاحد ان يتركه ترفعاً ويرى مباشرته له نقيصة تحط من جلالته

وترى بعض من ينتمي الى العلم يعتقد الخير بما يصنعه طائفة من العامة في مظهر الطاعة ويدافع عنهم صولة المنكرين بتحريف وتأويل ولو قلت له ادخل يدك في ايديهم وضم صوتك الى اصواتهم ونقر على ما ينقرون فاما ان يستفيق من غفوته او يعتذر بان هذا يقبح بمثله عادة . والذي يقطع هذه المعذرة ان صوت العادة اضعف صدي واحقر من ان يسمع في تقبيح ما يحسنه منزل الشريعة ويجعله وسيلة يبتغي بها الفوز بالمثوبة والزلفى عنده

دليل الشرف

يورد الواصفون لحال حياة الرجل شؤوناً تساعفه بها صروف الاقدار و يقصدون بها الدلالة عَلَى عظم مكانه في الفضيلة مثل صحبة العظماء فقد جرت العادة ان من اتصل برجل خطير قاصداً الاستفاء من معارفه او الاقتداء بسيرته لا يفوته ان يفيض عليه من تحقيقات علومه او يخلع عليه بردة من ملابس آدابه

ومن هذا ولاية منصب عظيم كالقضاء والامارة والوزارة فانه يجري في الظنون ان لا يستخلص لهذه المقامات الا ذو كفاءة وانما يصح الاعتماد في شرف الرجل عَلَى مجرد الولاية بدون نظر في سيرته او تتبع آثاره اذا ثبت ان تقليده بها صدر من عارف بحقائق الرجال ذي عداله تصده ان يوسد الامر الى غير اهله

ويقولون في سياق المديح « نشأ في مدينة كذا » واصل هذا ان الرجل اذا شب في مدينة انتشرت فيها الفضيلة

وزخرت فيها المعارف يغلب على الظن انه التقم ثدي التعليم ناشئاً او ترشح خلقه بالادب منذ كان صبياً فيكون علمه او ادبه ثابت الدعائم واسع المجال . ونسي اسارى الاوهام هذه الملاحظة فجرى الى معتقدهم ان الولادة بمدينة علم او فضل تعد لصاحبها مزية وان كبر سنه مع الهمج وولج بعقله في خلق الحمق

يخيل لكثير من ابناء الحواضر والقبائل ان ولادة الشخص على تراب بلادهم من ارجح النعوت التي توضع في وزنه وتستدعي ايثاره بكل مكرمة . ولم يتيقظ هؤلاء الى ان هذه الطبيعة بقية مما ترك الجاهلية الاولى وقد جاء القرآن بمحو آثارها من النفوس المسلمة وتعليمها الاعتبار برابطة الايمان فقال (انما المؤمنون اخوة) والوطنية التي تتلاقى باداب الاسلام ان يؤكد الرجل الرابطة مع من يضمهم واياه وطن او بلد سواء تمخضت بهم امهاتهم على تربته او استهلوا تحت سماء غير سمائه ثم طوحت بهم طوائح القدر اليه اذا المراد من تأكيد هذه الرابطة انما هو تبادل المنافع والتعاون على المصالح المشتركة ومتى صلح الوارد على ارض لان يكون عضواً عاملاً في

مطالب الحياة الاجتماعية وقف في نظر العقلاء من ساكنيها بجنب الناشئين علَى ظهرها حتى اذا مادعوا الى مقام الترجيح بينه و بين غيره دخلوا اليه من ناحية القوة علَى عمل المصالح والقيام باعبائها

يدرك الرؤساء العادلون هـذه الحقيقة وكذلك الفضلاء الذين يرتلون قول خالقهم في وصف الانصـار (يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا) فيترفعون بانفسهم ان تستعبدها الطبائع غير المنقحة ولا يعدون فيما يخف به وزن الرجل ان يثبطا ابوه عن الرحلة الى مدينتهم اوقبيلتهم حتى تضعه امه خارجها ويفوته ان يستهل علَى مستقر منها

انما يكره العلماء السكنى بالقرى وان كانت وطنا ويقصدون الى الاقامة بالحواضر لان سوق العلم فيها نافقة والحرص علَى التعلم بها اقوى فيجد العالم من الراغبين في الاستفادة سبلاً مفتوحة ودواعي باعثة علَى المطالعة والتحرير . كان الشيخ عزالدين بن عبد السلام بدمشق ثم خرج الى الديار المصرية لغضب الامير اسماعيل ابي الخيش عليه حين انكر عليه الشيخ

اعطاه بلد صيدا وقلعة الشقيف الى الافرنج فلما مر بالكرك تلقاه صاحبها وسأله الاقامة عنده فقال له بلدك صغير على علمي ولما وصل الى القاهرة عرف سلطانها نجم الدين ايوب قيمته فاكرم نزله

ويرجحون الرجل بكثرة اتباعه ومعتقدي افضليته وهذا وزن صحيح ان كان هؤلاء الاتباع من اولي الاحلام الراجحة والالمعية المتقحة اما اذا كانوا فيمن عميت عليهم سبل السيادة ولا فارق عندهم بين المكارم واضدادها فلا ترجح بهم صحيفته وان كانوا اكثر من الحصى

واذا اعترفوا بالفضل لرجلين احدهما حاضر لديهم والآخر لم تقع عليه اعينهم جرى في ظنهم ان الغائب اوسع فضلاً ورفعوه في اعتبارهم مرتبة. ومن علل هذا ان المقررين لاحوال ذوي الفضل محادثة او كتابة انما يتعرضون في الغالب الى محاسنهم وقلما يذكرون لهم سيئة من اعمالهم فاذا تلقى الانسان ترجمة فاضل تصوره بصورة كامل خلص من كل عيب بخلاف اعتقاده بفاضل شهد شخصه وراقب سيرته فانه يطلع له على

احوال لا يستحسنها بمقتضى ذوقه او عادته او كانت مما يواخذ به الفضلاء وشانه ان يندمج في فضائلهم وتقطى عليه محاسنهم ومن هنا نشأت المقالة السائرة (ان الخبر عن الغائب فوق المشاهدة) قال ابو بكر بن العربي في قانون التأويل ورد علينا ذا نشمند (يعني الغزالي) فنزل برباط ابي سعيد بازاء المدرسة النظامية فلقيناه لقاء المعرفة وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة وتحققنا ان الذي نقل الينا (ان الخبر عن الغائب فوق المشاهدة) ليس عَلَى العموم

ومن هذا حسن التركيب وجمال المنظر فلا يعد في نفس الفضيلة وانما هو كالعلامة الرامزة الى حسن الخلق فانه كما يقول الحكماء دال عَلَى اعتدال المزاج واذا اعتدل المزاج كان منشأ للافعال الجميلة غالباً ومن هنا قال الفقهاء بتقديم صبيح الوجه الى الامامة اذا ساوى غيره في شرائطها واوصاف كمالها . فان تخلف عن وسامة المحيا حرية الطبع وشهامة الخاطر انفصل من محل الاعتبار في نظر الشارع وعادة الفضلاء قال المتنبي

وما الحسن في وجه الفتى شرف له

اذا لم يكن في فعله والخلائق

وان خطر لك ان تثبت له المزية في نفسه فلا يمكنك سوى ان تعده مزية في الانسان من حيث انه جسم كما ان قوة حواسه الظاهرة كمال فيه بوصف كونه حيواناً

ووضع في الطبائع اجلال العالي في السن وتفضيله على من هو اقصر اجلاً او اقرب عهداً بالحياة منه والسر في هذا ان الشيخ بامتداد حياته وطول تجاربه صار مظنة لان يكون اوسع علماً وارسخ في الاخلاق الفاضلة

ما استقامت قناة فكري الا

بعد ان قوس المشيب قناتي

ولهذا ترى الاشيب اقدر على مقاومة الهوى واصوب رمية في وجه السياسة غالباً ، بخلاف الشاب فانه يكثر فيهم الجهل بالعواقب ويأخذهم السرف في اتباع الزينة والملاهي بسهولة ، وبهذا كان للاقبال على الطاعة في حالة الشيبة مزية على القيام بها في حال مشيب كما قال صلى الله عليه وسلم في

حديث سبعة يظلهم الله في ظله « وشاب نشأ في طاعة الله »
فاذا عاش الطاعن في السن وهو يجري مع شهواته بغير عنان
ولم يستفد من تصاريف الزمان ملكة قياس الوقائع باشباهها
فلا يستحق لطول عمره تجلة

اذا لم يكن مر السنين مترجماً
عن الفضل في الانسان سميته طفلاً
وما انتفع الايام حين تعدها
ولم يستفد فيهن علماً ولا فضلاً

وينبهون على شأن الرجل بالحديث عن رحلته الى الاقطار والمدن الاهلة بالعلماء والفضلاء فان الناهض في الاسفار فلما يفوته ان يلاقي عالماً او فاضلاً يقتبس من لقائه مسائل او اساليب او شمائل لا يتوفق لها في وطنه . ذكر ابو بكر بن العربي مسألة حررها بالمسجد الاقصى عن شيخه ابي الحسن ابن مرزوق وقال في آخر ما كتب وبوم حصلت هذه المسألة قلت الحمد لله الذي افادني هذه في الرحلة وعلمت اني لو لم احصل غيرها لكفتني ثم رحلت بعد ذلك الى العراق فوجدتها

عند علمائهم مبثوثة. وقد خففت كثرة التآليف وقيام المطابع بنشرها شدة الحاجة الى الرحلة من الجهة العلمية

وجرى في قريض ابي الطيب المتنبي ان من دلائل كمال الرجال رمى الناقص له بسباب حين يقول

واذا اتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بانني كامل

ووجه هذا ان الوضيع لا تلتفت همته الى من كان واقفاً في صفه من الاسافل فتحدثه بان يبلغ في اعراضهم بالمذمة لانه غني في نشر مثالبهم بما تلبسوا به من الفضائح حتى اذا القى نحوهم بسبة رماها عَلَى شفته من غير حرص وشدة اهتمام بالتحدث بها وانما تتوجه همته بجامعها الى الرجل الكامل حيث يقصد انزاله في معتقد الجمهور الى مدرجته او ما هو اسفل منها

وفي جملة ما يلوح الى فضل الرجل ويحوز له نصيباً من الوجاهة اقترانه بذات مجد وسؤدد كما قال الحسن رضي الله عنه لعبد الله بن الزبير ولم تكن لجدك في الجاهلية مكرمة الا تزوجه عمتي صفية بنت عبد المطلب فبذخ بها عَلَى جميع العرب

وشرف بمكانها . وانما استفاد الرجل من اقترانه بماجدة التفات الناس اليه باحترام لان اولياء المرأة الحسيبة يحترزون غالباً ان يعزموا عقدة نكاحها لغير ذي كفاءة ، فتكون اجابتهم لخطبته والرضا عن مصاهرته كالشهادة لفضله ورفعة حسبه ولذلك كان العرب يطلقون عَلَى رغبة غير الماجد في تزوج الماجدة استمجادا اي طلب للسيادة وتكلفا لها

تبغي ابن كوز والسفاهة كاسمها ليستادمنا ان شتونا لياليا

ورد في الاسلام ما يدل عَلَى اعتبار رابطة التزوج بذي فضل اذا انضم اليها الاحتفاظ بواجبات الشريعة تجد هذا في قوله تعالى يا نساء النبي (لستن كاحد من النساء ان اتقيتن) فيفهم من الآية ان صلة التزوج بشريف انما تقابل بوجه من التفضيل اذا صحبها وصف التقوى ، ويقول بعض المفسرين ان الوقف في الآية عند قوله (لستن كاحد من النساء) ثم يبدأ بالشرط ويكون جوابه ما بعده وهو قوله (فلا تخضعن بالقول) فتفيد الآية حينئذ تفضيلهن عَلَى النساء باطلاق وهو ابلغ في مدحهن وهذا الوجه غير مستقيم والذي يخدش فيه ان الوقف عَلَى ما

obeikandl.com

قبل الشرط غير متعين وان الآية لم ترد في سياق المدح والثناء وانما جاءت في معرض الوعظ والارشاد

ومن دلائل شرف الانسان اتصال نسبه بمن ثبت له ضرب من السيادة فان النسب الرفيع مظنة ان يحث النسيب على تنقيح سيرته ويتحرى به قصد السبل في ادبه . ووجه هذا ان من نبت في بيت فاضل ونشأ في مهاد طاهر من شأنه الاقتداء على اثر سلفه ولا يفوته ان يقتبس من انوار فضيلتهم ولهذا يهجم على الانسان العجب ويتقوى في الانكار متى شاهد من سلالة الفاضل ما لا يقع منه موقع الرضا كما قصه الله تعالى عن قوم مريم عليها السلام في قولهم لها حين انكروا عليها الولد من غير اب (يا اخت هرون ما كان ابوك امرأ سوء وما كانت امك بغيا)

وما ورد في الاسلام من النصوص الناطقة به عن مكان الاعتبار فمصروفة الى حال نسب لم يفد صاحبه ادباً ولم يبعث في همته نية صالحة قال صلى الله عليه وسلم (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا)

جاء في الشريعة ما يصرح بان النسب لايغني غناء العمل الصالح في الخلاص من عهدة التكاليف ولا يرد العقوبة على المظالم في الآخرة قال صلى الله عليه وسلم فيما روى مسلم (من ابطأ به عمله لم يسرع به نسبه)ولاتمسك في قوله تعالى(والذين آمنوا واتبعتهم ذرياتهم بايمان الحقنا بهم ذرياتهم) على ان الابناء الذين اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات يلحقون بمراتب آبائهم بدون ان يذوقوا عقوبة ما صنعوا فانه يقول بعد ذلك (كل امرئ بما كسب رهين) وهل ياخذ النسب الفاضل بقسط من الكرامة بعد ان يخلص صاحبه من تبعات التكاليف العامة ؟

قد يستدل لصحة هذا بآية(والذين آمنوا واتبعتهم ذرياتهم) فان اولئك الذرية في رأي الجمهور لم يتأهلوا باعمالهم وحدها ان يرتقوا الى منازل آبائهم الذين هم احسن عملاً واوسع براً وانما رفعوا اليها تتميماً لنعمة الآباء وتوفيراً لانسهم

لعلك تستشرف الى تقرير التوافق بين هذه الآية القاضية بان الكرامة قد تزداد بطريق غير التقوى وهو النسب و بين

قوله تعالى (ان اكرمكم عند الله اتقاكم) المصرح بان التفاضل في الكرامة عند الله انما يكون على قدر التفاوت في التقوى فنقول في وجه الجمع بينهما ان الرجل تارة يتأهل لدرجة من الكرامة بكمالات نفسه وتارة لاتبلغ به مساعيه الى ذلك المقام بحيث لو ينظر اليه منفرداً لقصرت وجاهته ان يحل بساحته ولكن يفسح له في الدخول فيه تبعاً لعظيم ينعم بانه ويبسط انسه ان يراه نازلا بجواره فهذا التابع وان حشر في زمرة متبوعه والحق به في المنزلة فان اجلال المتبوع عند رب المنزل اكمل ورضاه عنه في نفسه ارفع فاذا اريد من الكرامة في الآية الثانية العناية والمحبة النفسية لا الانعامات الظاهرة اطرد ان يكون التفاضل فيها بحسب التفاوت في التقوى ولا حرج ان كان قسط التابع في النعيم مساوياً لنصيب المتبوع الذي هو ازيد منه طاعة واحد شيئاً او يقال ان الآية افهمت مساواة الذرية لآبائهم في المكان وهذا لا يستلزم الاتحاد في مقدار النعيم وكيفيته اما اذا فهم الالحاق في قوله (الحقنا بهم ذرياتهم على معنى المزاورة والمواصلة احياناً لا المجاورة بالسكنى فترتفع شبهة

التصارخن من حيث نشأت

واما عنايته تعالى بذي النسب الفاضل في هذه الحياة فمن مظاهرها قوله تعالى (وكان ابوهما صالحاً فاراد ربك ان يبلغا اشدهما) فقوله وكان ابوهما صالحاً يلوح الى ان من اسباب اقامة الجدار لهذين الغلامين رعاية صلاح ابيهما

ولم نظفر فيما ثبت من نصوص الشريعة بما يدل على شمول هذه العناية للنسيب الذي فسق عن امر ربه واطلق عنانه في مسابقة الفاجرين كما يتوهم بعضهم في احوال تتفق للنسيب الفاجر فيلقبونها بالكرامة ويزعمون انها انجرت له من العناية بابيه الصالح او جده ويستندون في استشادهم على ما يزعمون قوله تعالى (وكان ابوهما صالحاً) والحال ان الآية واردة في قصة غلامين موصوفين باليتم واليتيم انما يطلق حقيقة على الولد قبل ان يبلغ الحلم ويكتب في صحيفته القلم وكأنهم جهلوا او تناسوا ان الماضي والضلالات تزل به في مواقع المهون وتتخطه في مصارع الغضب وكيف يلتقي الغضب والكرامة التي هي من مآثر الرضا في موضع

التي الله تعالى على من انتظم في سمط النسب النبوي عناية خاصة فطهرهم عن اخذ الزكاة واكد في مودتهم ومعاملتهم بالمبرة والاحترام لمكان صلتهم بافضل الخليقة عليه الصلاة والسلام قال ابو بكر الصديق رضي الله عنه كما في الصحيح (والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم احب الي ان اصل من اهلي وقرابتي . ولكن الحقوق الشرعية منوطة بذممهم ومصروفة اليهم باجمعها كما صرفت الى غيرهم على سواه فيجازون بالمحامد عما فعلوا من خير ويلاقون بالملامة والنكير عما وقعوا فيه من السوء . ومن الصحيح الذي روى عنه صلى الله عليه وسلم (يافاطمة ياصفية اعملا فاني لا اغني عنكما من الله شيئاً) وفيما روى الشيخان والاربعة عنه عليه الصلاة والسلام (وايم الله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)

ويعزي الى بعضهم القول بان اقارب النبي . صلى الله عليه وسلم لايعذبون على المعاصي فيعتقد في كل مؤمن منهم مات وهو يعمل بالمعصية انه لايلحق به الوعيد في الآخرة

واستدل على هذا بقوله تعالى (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس آل البيت ويطهركم تطهيرا) فانه علق تطهيرهم وذهاب الرجس عنهم بالارادة التي لاتتبدل احكامها وهذا المذهب لاينتظم مع قاعدة اهل السنة من ان امر العصاة موكول الى المشيئة ولا اراه الا مختلقا على من نسب اليه ثم ان فهم الآية على ماقرره غير متعين ولا هو ظاهر فان المراد من آل البيت علي وفاطمة وابناهما الحسن والحسين رضي الله عنهم كما عزاه ابن عطية للجمهور اوالمراد ازواجه عليه السلام وهؤلاء الاربعة ورجحه ابن عطية من عند نفسه وعلى فرض ان يحمل آل البيت على الاشراف ما امتدت فروعهم في الاسلام فان الارادة في الآية واردة بمعنى الامر كما فسرها بذلك ابو اسحاق والشاطبي في موافقاته وهي تستلزم المحبة والرضا بالمراد لا وجوبه ووقوعه ويكون سوقها في حقهم خاصة مع ان الله يحب ويرضى ذهاب الرجس عن غيرهم للايذان بان حكم الآل حكم غيرهم في استقباح المعاصي منهم وارادة تطهيرهم من آثامها لئلا يتوهم ان قرابتهم من اكمل الخليقة تقوم مقام الاعمال الصالحة وتجعلهم

بحيث لا تستقبح منهم الفحشاء ولا تكتب في صحائفهم الاوزار

مظاهر التشريف

طبع البشر على انهم اذا عرفوا رجلاً بنعت شريف اكبروه في قلوبهم وهابوه في نفوسهم بمقدار ما يعتقدون فيه من الكمال . ويشاهد أثر ذلك الاجلال في بعض احوالهم الظاهرة عند مواجهته

تنوعت الهيئات التي يقصد بها اجلال الرجل العظيم بحسب اختلاف عوائد الامم واذواقهم الى انواع شتى لا داعي هنا في هذه الورقات الى استقرائها وانما نأتي على المنهج الذي يلائم النفوس الفاضلة ويسهل ان تسلكه عن رضا وسماحة خاطر

يتجلى لك هذا المنهج اذا انست رجلاً سليم الفطرة حاضر العقل ولم يحدث له رجاء ولا رهبة من الرجل الافضل فانه لا يصدر عنه من شعائر الاحترام عند ما يلاقيه اكثر من ان يبسط يده الى مصافحته ويطلق لسانه بتحيته او بما يستحق من التمجيد واذا تواصلت بينهما المحادثة سلك في خطابه مسلك الادب الجميل وتلقى مطالبه بحسن الطاعة

طالع التاريخ تر الرجل من احاد الرعايا يدخل في مجلس عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فلا يزيد على التحية الاسلامية فيقنع الخليفة برسم هذه التحية ويرد عليه بمثلها او احسن منها وما كان ابن الخطاب يجهل ان الرجل يحترمه بقلبه لانه لم يلثم راحته ولم يلبس ثوب العبودية بين يديه بل كان على خبرة بان هذا الذي اقتصر في تحيته على ما امر الاسلام يوقره في صدره ويحافظ على طاعته في الغيب كما يسارع الى امتثال امره عند الشهادة

يعلم هذا ولا نحتاج الى ان نسند علمه الى نور ايمانه وصفاء سريرته ولكنه كان على بصيرة من سيرة نفسه العادلة وتصرفاته المحكمة وهي لا تثمر في قلوب الرعية الا المهابة والتعظيم

يقول بعضهم ان مثل هذا لائق ايام كانت الرعايا مؤدبة بهدى يطبعها على حسن الطاعة وسهولة المأخذ اما حين ينتزع منها ذلك الادب وتضل عن معرفة ما هو كمال في نظر الحكيم فلا غنى من حملها على التظاهر بهيئات الاجلال وشواهد الرهبة بابلغ مظهر . وهذا القول ضرب من الاوهام فان الامر الذي

obeikandl.com

يبذر المهابة ويلقي الاجلال في قلوب البشر ادباء او متوحشين انما هو العدل في اجراء القوانين من بعد اعداد القوة الكافية لتنفيذها على من يريد الخروج عن الامتثال

انما ابتدعت هذه المظاهر المتطوحة الى مهاوي الذلة في عصور الامراء الذين كانوا يضعون نير الاضطهادات على الرقاب وقد اعتادها كثير من الناس وانسوا بها في جملة آدابهم حتى لم يبق لهم عند اتيانها عرق ينبض لسماجتها وقبح هيئاتها واصبحوا يحسبون المقصد فيها من ملأ يتكبرون او قوم هم عن اساليب الكياسة غافلون .

ترى الوجهاء الذين لم يبلغوا رشدهم في المعرفة ولم يثقوا من انفسهم بالعدالة اعلق همة واشد حرصاً على ان يحتفظ لهم الناس بهذه المظاهر البالغة ولهذا لا تجدهم ينظرون الى سليم الفطرة نير التربية بانعطاف واعجاب لانه يجري في معتقدهم ان من كان بتلك الصفة لا تسمح له همته بان يتخفض عندهم بعبارات التملق والاطراء وينعت نفسه باسم المملوك ومقبل الاعتاب وهذا على خلاف سنة الوجيه الذي امتلأ معارف وتمكن

obeikandl.com

من فضيلة العدل فانه يكون في غنى بلذة الحكمة والاستقامة عن ان ينتصب الناس لرؤيته قائمين او يضعوا شفاههم على ظاهر راحته لاثمين

واما تنبيه الرجل عن محاسن نفسه وتحدثه بمزاياه فانما سوغه العلماء في مواضع ذكرها السيوطي في تقييده المسمى بنزول الرحمة في التحدث بالنعمة قال : ومنها اذا لم ينصف او نوزع او كان بين قوم لا يعرفون مقامه ويستدل لذلك بعمل ابي بكر الصديق رضي الله عنه فانه لما ولي الخلافة خطب فقال اما بعد ايها الناس فاني قد وليت عليكم ولست بخيركم فجرى على قاعدة التواضع ثم بلغه عن بعض الناس كلام فخطب وقال البيت احق الناس بها البيت اول من اسلم البيت صاحب كذا البيت صاحب كذا اخرجه الترمذي وابن حبان في صحيحه ثم قال ووقائع العلماء في تحدثهم بمثل هذا لا تحصى ومن هذا ما حكى القاضي تاج الدين السبكي عن والده الشيخ تقي الدين انه طلب من خازن كتب المدرسة الظاهرية ان يعيره من الخزانة كتاباً فتمنع عليه فغضب السبكي وقال مثلي لا يحتاج الى كتب هذه الخزانة بل

كتب هذه الخزانة محتاجة الى مثلي يحررها . ومما ينتظم بهذا العدد ما قصه الله تعالى في قول يوسف عليه السلام لمن لا يعرف صفة عدالته وعلمه (اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم)

هذا ما وفق الله لتحريره في جمادي الثانية

عام ١٣٣١ وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين

oberikandl.com

كتب هذه الخزانة محتاجة الى مثلي يحررها . وما يتعلم بهذا العدد ما قصه الله تعالى في قول يوسف عليه السلام لمن لا يعرف صفة عدالته وعلمه (اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم)

هذا ما وفق الله لتحريره في جمادي الثانية

عام ١٣٣١ وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين

obeikandl.com

فهرس الكتاب

٥	الشرف والتفاضل فيه
١٣	شرف الانسان
١٤	القوة العاقلة
٣١	فضيلة العلم
٣٣	فضيلة الارادة
٣٥	ادب النفس
٣٩	مزية الاستطاعة
٥١	فضيلة العمل
٥٧	دلائل الشرف
٧٢	مظاهر التشريف

obeikandi.com